

روح المعاني

هذا بيان للتفكر في أفعاله تعالى وما تقدم بيان للتفكر في ذاته تعالى على الإطلاق والذي عليه أئمة التفسير أنه سبحانه إنما خص التفكير بالخلق للنهي عن التفكير في الخالق لعدم الوصول إلى كنه ذاته وصفاته جل شأنه وعز سلطانه وقد ورد هذا النهي في غير ما حديث فقد أخرج أبو الشيخ والأصبهاني عن عبداً بن سلام قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يتفكرون فقال : لا تفكروا في الله تعالى ولكن تفكروا فيما خلق .

وعن عمرو بن مرة قال : مر رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكرون فقال : تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق وعن ابن عمر قال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم : تفكروا في آلاء الله تعالى ولا تفكروا في الله تعالى وعن ابن عباس تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله تعالى غير ذلك ففي كون الأول بياناً للتفكر في ذاته سبحانه على الإطلاق نظر على أن بعض الفضلاء ذكر في تفسيره أن التفكير في الله سبحانه محال لما أنه يستدعي الإحاطة بمن هو بكل شيء محيط فتدبر وقيل : قدم الذكر على الدوام على التفكير للتنبيه على أن العقل لا يفي بالهداية ما لم يتنور بنور ذكر الله تعالى وهدايته فلا بد للتفكر من الرجوع إلى الله تعالى ورعاية ما شر له وأن العقل المخالف للشرع لبس الضلال ولا نتيجة لفكره إلا الضلال والخلق بما بمعنى المخلوق على أن الإضافة بمعنى في أي يتفكرون فيما خلق في السموات والأرض أعم من أن يكون بطريق الجزئية منهما أو بطريق الحلول فيهما أو على أنها بيانية أي في المخلوق الذي هو السموات والأرض وإما باق على مصدريته أي يتفكرون في إنشائهما وإبداعهما بما فيهما من عجائب المصنوعات ودقائق الأسرار ولطائف الحكم ويستدلون بذلك على الصانع ووحدته الذاتية وأنه الملك القاهر والعالم القادر والحكيم المتقن إلى غير ذلك من صفات الكمال ويجرهم ذلك إلى معرفة صدق الرسل وحقية الكتب الناطقة بتفاصيل الأحكام الشرعية وتحقيق المعاد وثبوت الجزاء ولشرافة هذه الثمرة الحاصلة من التفكير مع كونه من الأعمال المخصوصة بالقلب البعيدة عن مظان الرياء كان من أفضل العبادات وقد أخرج أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة وأخرج ابن سعد عن أبي الدرداء مثله وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً مثله وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم : فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة وعنه أيضاً مرفوعاً بينما رجل مستلق ينظر إلى النجوم وإلى السماء فقال والله إنني لأعلم أن لك رباً وخالقاً اللهم أغفر لي فنظر الله تعالى له فغفر له وأخرج ابن المنذر عن عون قال : سألت أم الدرداء ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء قالت : التفكير والإعتبار .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عامر بن قيس قال : سمعت غير واحد من إثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان بالتفكير واقتصر سبحانه على ذكر التفكير في خلق السموات والأرض ولم يتعرض جل شأنه لإدراج إختلاف الليل والنهار في ذلك السلك مع ذكره فيما سلف وشرف التفكير فيه أيضا كما يقتضيه التعليل وظاهر ما أخرجه الديلمي عن أنس مرفوعا تفكر ساعة في إختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة إما للإيدان بظهور إدراج ذلك فيما ذكر لما أن الإختلاف من الأحوال التابعة لأحوال السموات والأرض على ما أشير إليه وإما للإشعار بمسارعة المذكورين إلى الحكم بالنتيجة لمجرد تفكيرهم في بعض الآيات من غير حاجة إلى بعض آخر منها في إثبات المطلوب .

ربنا ما خلقت هذا باطلا الإشارة إلى السموات والأرض لما أنهما بإعتبار تعلق الخلق بهما في معنى